صفحة من تاريخ

الاستشراق فى المانيا

بقلم الدكتور يوهان فيوك

قام الاستاذ الشهير يوهان فيوك J. Fück فى سنة 1943 بوضع مؤلف ذي أهمية فائقة عن تاريخ الاستشراق والمستشرقين فى أوربا من أوائل دراسات اللغة العربية الى القرن التاسع عشر ، ثم أتم هذه الرسالة فيما بعد ونشرها فى كتاب عنوانه:

Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955

نود أن نورد هنا بابا من هذا الكتاب عن أول من جعل علم اللغة العربية علما ودرسا مستقلا . وهو (يوهان يعقوب رايسكه J. J. Reiske الالمانى (1716 الى 1774) منقولا عن مجلة «فكروفن»

كان أول من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة المسيحية الذين بذلوا جهدهم فى درس لغة المسلمين غير أن هدفهم لم يكن هدفا علميا بل انهم أرادوا الرد على الاسلام على أساس تراجم لاتينية للقرآن و « اهداء » المسلمين بواسطة تراجم عربية للانجيل والكتب الاخرى ، أي ان غرضهم كان بعيدا عن تحقيق عادل ودراسة علمية . ولم يتغير هذا الوضع فى بلاد الغرب كلها حتى القرن السادس عشر تقريبا عندما اشتدت الرغبة لدى أهل الغرب في ارسال المبشرين الى البلاد الاسلامية بعد أن فتح الاتراك مدينة استانبول سنة 1453. ثم أخذ بعض أهل العلم يؤمون الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من استانبول ودمشق وغيرهما من مدن الشرق ولتعلم اللغة العربية فى هذه المنطقة . وكان أول هؤلاء المستشرقين ويليلم بوستل W. Postel الفرنسي الاصل الذى أرسله ملك فرنسا فرانسوا الاول ، سنة 1534 الى مصر ثم الى استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرانية وقليلا من اللغة الحبشية . ولما رجع بوستل الى وطنه عينه الملك أستاذا للغات الشرقية فى جامعة باريس سنة 1537 فألف فى تلك السنين كتابا فى النحو العربى أشار فيه الى أهمية اللغة العربية وأدبها ولكن أمله فى درس هذه اللغة كان فتح باب جديد للمبشرين النصارى فى بلاد الاسلام . ونجد فى كتابه هذا اخطاء بلا عدد ونستدل منه على أن معرفته بالعربية كانت ضعيفة غير كافية مع نشره في آخر كتابه ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة .

أما المخطوطات التى كان بوستل قد اتى بها الى أوربا فقد باعها الى مكتبة جامعة هايدلبرج عندما وقع فى ضيق مالى وجرى عليه ما جرى من الحوادث الغريبة ، وأصبحت هذه المخطوطات أساسا مهما بنيت عليه دراسة اللغات الشرقية فى المانيا فى مهدها. فقام بعض اللاهوتيين بدراسة تراجم الانجيل العربية التى وجدت فى المخطوطات المذكورة ، وكان يعقوب كريستمان Christmann (1554 الى 1613) الذى تعلم اللغة العربية من كتاب النحو لبوستل أول من عرض على الامير يوهان قاسيمير تشكيل كرسي خاص للدراسات الشرقية وبخاصة العربية في جامعة هايدلبرج وكان ذلك في عام 1590 غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ قبل سنة 1609 .

مع أن كريستمان ومن تبعه في المانيا في ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية في الشرق فقد قام في فرنسا عالم بمنهاج آخر ، وهو يوسف سكاليجر Scaliger (1540 الى 1609) ، أحد تلامذة بوستل . وكان هذا أول من ألم بعلم عميق عن مختلف مناهج ضبط التواريخ في الشرق والغرب وقام بجمع أخبار التقاويم لدى الملل والنحل كما سبقه في ذلك العالم المتبحر البيروني في « كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية » من نحو ستة قرون مضت ، وقارن سكاليجربين هذه التقاويم حتى انه ألم بخصوصية التاريخ الهجري وكان هذا غير معروف عند أهل الغرب ، ووقف أيضا على التاريخ الجلالي الذي ابدعه الرياضيون في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي (المتوفى 1072) . ومن هنا تبدأ الدراسة الحقيقية لتاريخ الاسلام .

وفي هذا العصر ظهرت لاول مرة الحروف العربية في الطبع في أوربا مع كونها غير حسنة الشكل . وازدادت معرفة العلماء بالطب العربي وارتباطهم بهذا العلم الذي كان مشهورا في الغرب منذ القرون الوسطى على يد التراجم اللاتينية .

أما المملكة التي لعبت دورا كبيرا في تطور الدراسة الشرقية فهي هولاندا ، وكان توماس اربنيوس Erpenius (1584 الى 1624) أول من قام بنشر متن مأخوذ من الادب العربي في أوربا عندما طبع في سنة 1615 « كتاب الامثال » للميداني ، وألف ايضا كتاب النحو العربي الذي كان يستعمله كل من أراد درس العربية في الغرب نحو قرنين أي الى أن نشر سيلفستر دي ساسي S. de Sacy كتابه المشهور في النحو العربي في عام 1810 . واعتنى اربنيوس أيضا بطبع سورة يوسف . ان ما ابتدأ به هذا العالم اتمه خليفته في جامعة لايدن ، يعقوب جوليوس Golius (1596 الى 1667) الذي نشر عددا من الآثار العربية المشهورة ، منها « لامية العجم » للطغرائي و « عجائب المقدور » لابن عربشاه ، وتوج آثاره بتأليف قاموس عربي – لاتيني . زد على هذا أنه اشترى في اثناء سياحته في سورياوتركيا نحو 250 مخطوطة عربية ما زالت محفوظة في مكتبة لايدن الى الآن ، وأضاف اليها فيما بعد وارنر Warner ، أحد تلامذة جوليوس ، ما يقارب الف مخطوط ذات قيمة . فأصبحت مدينة لايدن مركزا لتحصيل العربية في أوربا . ومما يدعو للاسف اننا نجد بعد ذلك في الجامعة نفسها أستاذا آخر أي البرشت شولتنس Schultens (1686 الى 1750) الذي يعتبر مثالا حيا لهؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا اللغة العربية لقيمتها الادبية أو للتعمق في تاريخ الاسلام او لدرس تطور الادب عند المسلمين بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية . وعاش في أيام هذا المستشرق الفلمنكي عالم المانى اسمه يوهان يعقوب رايسكه يستحق بأن يدعى اول مستشرق حقيقي في عهد غير ملائم للدراسات العربية ومن المدهش والجدير بالذكر انه قام بهذه الدراسة وأدام عليها على الرغم من المصاعب التي أصابته في ابان حياته .

ولد رايسكه في عائلة دباغ فقير في 25 كانون الاول سنة 1716 في قرية تسوربج Zörbig في مملكة ساكسونيا ، وحصل على تربيته الثانوية في الميتم المشهور في مدينة هاله (وكان هذا الميتم الذي أسس سنة 1695 مدرسة ذات شهرة في ذلك العهد) وبقي فيه من سنة 1728 الى سنة 1732 ، وأخذه « شوق لا يوصف وغير قابل القمع لتعلم اللغة العربية » لم يدر الشاب ما سببه، وعندما ابتدأ بدراسته في جامعة لايبزج عام 1733 اختار مواضيع تحصيله مستبدا برأيه وشرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير وتوفق في درس النحو العربي دون الاخذ بمعونة أي معلم ما مستندا الى موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط . وسعى أن يشتري كل ما وجد اذ ذاك في أوربا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه في حاجة الى ضروريات الحياة لان والديه الفقيرين لم يستطيعا ان يعطياه اكثر من 200 تالر في مدة خمس سنوات (وكان التالر يساوي الدينار أو اقل منه) . وفي سنة 1735 بدا له ان يتجرأ على مطالعة « عجائب المقدور » لابن عربشاه ، وهذا كتاب مسجع صعب الاسلوب ، ولعلمه بنقائص الكتاب المنشور على يد جوليوس وأغلاطه سافر في شتاء ذلك العام الى مدينة دريسدن ، وكان معلوما لديه ان أحد مأموري المكتبة الملكية هناك يملك نسخة مصححة مستندة الى نسختي هذا المؤلف المحفوظتين في مكتبة باريس ، فاستنسخها رايسكه باذن صاحبها . وقد اكمل الشاب مطالعة كل ما كان موجودا من الكتب العربية المطبوعة في سنة 1736 – أي لما اتم من عمره عشرين سنة ! – وفي هذه السنة ترجم الى اللاتينية رسالة هرمس المثلث بالحكمة التي كان مخطوطها محفوظا في مكتبة لايبزج ، فقال المستشرق الكبير هـ.ل. فلايشير Fleischer عن هذه الترجمة سنة 1870 ، اكثر من قرن بعد وفاة المؤلف : « انه لم يعد يوجد الآن شاب ابن عشرين سنة

يستطيع القيام بترجمة أحسن منها حتى ولو كان حاصلا على افضل التعليم ومتلقنا أصح الوسائل » وعبر كذلك عن رغبة واحدة يقول : « ليتني اجتنبت غلطات رايسكه، ولا ارغب فى فضل آخر » . بعد ذلك كان على رايسكه أن يحصل على مخطوطات عربية فبعث اليه المؤلف الشهير لكتاب Biblia Hebraica وهو يوهان كريستوف فولف فى مدينة هامبورج (من 1683 الى 1739) بنسخة من مقامات الحريرى من مجموعته الخاصة ، ونشر رايسكه المقامة السادسة والعشرين بمتنها العربى وترجمتها الى اللاتينية استنادا الى هذه المخطوطة وان سمى هذا التأليف فيما بعد eine elende Schülerprobe وسريعا ما تحسنت ترجماته وتفوق الاولية . وأقرضه فولف المذكور مخطوطات أخري لكي يتصرف بها فكان رايسكه منونا له لفضله هذا طول عمره . وكان كلما ازداد تعمقا فى الادب العربى ازداد شغفا به ، وأصبحت أمنيته الكبرى ان يكرس حياته لهذا العلم يبذل كل وقته لهذا الهدف . ولم يكن ذلك ممكنا الا بدخوله مكتبة لايدن المشهورة وخزينة المخطوطات المحفوظة بها المسماة « بوقف وارنر » . عزم رايسكه على السفر الى هولاندا رغم المشكلات العظيمة ، فرحل فى شهر مايو سنة 1738 متوجها أولا الى همبورج حيث قابله المؤلف فولف المذكور بكل لطف وقدمه أيضا لرايماروس Reimarus ، عالم واسع الصيت . ثم تبع رايسكه سفره الى مدينة امستردام وزار هناك الدكتور دورفيل d'Orville أحد اساتذة اللغات القديمة وكان الاستاذ فولف قد كتب له خطاب توصية ، فود الاستاذ دورفيل أن يتخذ رايسكه معاونا له، ولكن الشاب الذي كان شغوفا بمطالعة المخطوطات العربية لم يرد قبول الارتباط بوظيفة ما ورد هذا العرض مع انه لو كان قبله لحسنت وضعيته المالية تحسنا ملحوظا، ولكنه رفض القبول حتما كيلا يضيع الوقت اللازم لمطالعة الكتب الشرقية . ومع ذلك فقد قدم الاستاذ دورفيل له خدمات جميلة طوال اقامته في هولاندا وكان يوكله بقراءة التصحيحات لبعض كتبه وما يشبه ذلك من الاعمال الادبية والعلمية ومن التراجم كما كان يقوم بتسديد بعض مصاريفه فى أواخر اقامته بلايدن .

وصل رايسكه مدينة لايدن فى 6 حزيران 1738 وقام فى الحال بزيارة المستشرق شولتنس فعرف منه انه لا توجد هناك منح دراسية للطلبة الاجانب وان عطلة الصيف ستبدأ عن قريب . وقد زاد من غمه انه لم يسمح له بدخول المكتبة لعجزه عن ايفاء الرسوم . فصار مصححا عند أحد الكتبيين ، وهو يوهان لوزاك ، الذي أعطاه بدلا لخدمته غرفة وطعاما فقط ، وكان يحصل القليل من المال باعطاء دروس خصوصية باللغة اليونانية والمكالمة باللاتينية للطلاب الهولانديين . وعندما تابع شولتنس التدريس بعد التعطيل الصيفى أصبح رايسكه تلميذا له وحصل بمساعدته على الاذن بمطالعة المخطوطات التى طالما اشتاق لرؤيتها . وكانت رغبته الاولى التعمق فى آثار المؤرخين وكتب الجغرافيا ، ولكن شولتنس أوصاه بدرس الشعر العربى . فنسخ الشاب سنة 1739 ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، وفى السنة التالية الحماسة للبحترى ، واما معظم أوقاته فصرفها فى مطالعة أشعار الجاهلية الاكثر شهرة ، أي المعلقات ، ودرسها في مخطوطين « وارنر 292 ووارنر 628 » مع شرح التبريزى وشرح النحاس ، واختار أطولها ، وهى معلقة طرفة ، للتهذيب والتصحيح ، وأتم هذا العمل أوالقسم الاكبر منه، عام 1740 ، ولكن الطباعة لم تتم الا بعد سنتين أي فى عام 1742 ، ويحتوى كتابه هذا على المتن العربى بلا حركات مع ترجمته اللاتينية وحواش له ، وشرح النحاس ، وبعد أن يعلق المؤلف على الترجمة والحواشي وبعض الملاحظات يظهر كيف تطورت افكار الشاعر ويوضح موضوعات القصيدة واحدا بواحد كما يفسر ايضا الاشكال الشعرية وطرز البلاغة بمعونة كثير من الابيات والعبارات المأخوذة عن المعلقات الاخرى وعن ديوان الهذليين والحماستين واشعار المتنبى وأبى العلاء المعرى وسائر الشعراء ، وتعالج المقدمة أنواع مخطوطات المعلقات وحواشيها وشروحها والاسماء التى تعرف بها، ويقدم للقراء محتويات كل واحدة منها ويزيد المعلومات عن مجرى حياة مؤلفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل كما انه يضيف ايضا جدولا للانساب تبدو منه علاقة القرابة بين طرفة وسائر الشعراء فى جزيرة العرب ويمكننا بواسطة ضبط التواريخ التى اقترحها رايسكه فى مقدمة تأليفه هذا . وكان رايسكه بهذا العمل اول من سلك الطريق الذي يسلك الى الآن في الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب ، ومن المسلم به ان هذا الطريق هو أحسن طريق يهدى بالشارح الى غايته العلمية .

ومع ذلك فان المنهاج الجديد كان بعيدا جدا عن الطرق التى بحث فيها الاستاذ شولتنس عن أصول اللغات السامية فى غمائم خياله ، ولم يقم رايسكه فى تأليفه بانكار مثل هذه المخيلات غير المعقولة : ان من اقتطع ببراهين رايسكه على أن المعلقات من شعر القرن السادس

الميلادى فهو يعرف بأن لا ثقة بما زعمه شولتنس عن الشعر العربى القديم العهد . أما شولتنس فلم يعرف كيف يفهم كتابا فى العربية موضوعه لا علاقة له بتفسير التوراة ولا بنظريات اللاهوتيين . ووقعت لذلك ولسبب آخر مناقشة شديدة بين هذين الرجلين المختلفى الاخلاق غاية الاختلاف . أما رايسكه فلم يبال بما قاله الكثيرون وثابر على سلك الطريق الذى عرفه صحيحا وطيدا ، ولم يكن له علاقة ما بعلم اللاهوت ، ولم يكترث بالسؤال هل لتعلم التوراة ودرس اللغة العبرية أي فائدة من جراء درس العربية أو لا . ولم يكن باستطاعة الاستاذ شولتنس اقناع تلميذه هذا بأن يتعلم اللغات السامية الاخرى غير العربية لان رايسكه كان قد ادرك ان هذا لن يجلب اثمارا مرضية لدرس علم اللغة العربية وأدبها ، وعرف أن درس مشتقات الكلمات تلاعب على اساس جذور فرضية وان السعى لمعرفة المعنى الابتدائى للكلمات المشتركة فى اللغات السامية ما هو الا خرافات باطلة . حتى انه اعلن « أن أراد المرء أن يساعد على رواج دراسة العربية فعليه أن لا يدرسها كلاهوتي » . وثار ضميره كفقيه في اللغة على طريقة شولتنس الهوائية فى معالجة النصوص العربية وكيف كان يتفانى الصعوبات اما باهمال الكلمات التى لم يفهم معناها دون ذكر ذلك او بتغييرها تعسفا . لقد كان على علم بانه لا يكفى لاصدار نشرة صحيحة كون المخطوط قائما على أسس سليمة فحسب بل القدرة على النقد ومعرفة اخطاء النقل وتكهن المعنى الذى يقصده المؤلف من القرينة واصلاح مواضع فساد المخطوطة بتصحيحات تناسب اصطلاحات المؤلف .

كلفته ادارة المكتبة فى لايدن بتبويب وتنسيق المخطوطات العربية ، ورحب رايسكه بهذه الفرصة التى مكنته من تدقيقها كلها فنسخ ما علق بها من الآثار ، مثلا المعارف لابن قتيبة ، والتاريخ والجغرافيا لابى الفداء ، وتاريخ حمزة الاصفهانى ومقتطفات من طبقات الاطباء لابن أبى اصيبعة وغيره . ولكنه لم يمكنه الحصول على درجة الدكتوراة فى كلية الاداب فى جامعة لايدن لان شولتنس أبى ذلك عليه اذ انه كان يريد أن يعين ابنه خليفة له على كرسى الدراسات الشرقية ، وود لو رايسكه ترك دراسة العربية تماما . لذلك افهم العالم الالمانى أن وضعيته بائسة بلا أمل وأقنعه بأن يدرس قليلا من الطب ، فدرس رايسكه الطب لمدة بضعة اشهر وحصل على درجة دكتور طب في شهر مايو سنة 1746 استنادا الى ما كان قد جمع من معلومات طبية من المؤلفات العربية مع ان اللاهوتيين فى لايدن اقاموا مشكلات جديدة مدعين انه كان ماديا لما عرضه من الابحاث العلمية فى امتحانه . سافر رايسكه فى 10 حزيران 1746 من هولاندا ووصل مدينة لايبزج فى أوائل شهر تموز . ولما لم يرغب فى اجراء الطب فعلا وجب عليه أن يكسب يوميته بتصحيحاته الكتب وباعطاء دروس خصوصية وبتراجم وما شابه ذلك من الاشغال غير المجدية . ولكن المهم انه بقى لديه وقت لمتابعة العربية ، وألف في شهر آب 1747 كتابا لاتينيا عنوانه :

Prodidagmata ad Hagji Chalifae librum memorialem rerum a Muhammedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem

وهو رسالة فى التاريخ الاسلامى ، نشرها تلميذ له ، يدعى ي.ب. كولر Köhler سنة 1766 فى كتابه عن أبى الفداء فى شكل ملحق (ص 215 ـ 240) وفيه يرفض رايسكه فى مستهل مقدمته استعمال التعبير (شرقى » لانه غير مضبوط ، ويستعمل بدلا منه تعبير « محمدى » أو « مسلم » لان هذا العلم يبحث عن تاريخ المسلمين لا فى الشرق فحسب بل أيضا فى افريقيا وأوربا ، ويريد المؤلف كما قال ، معالجة مادته فى ثلاثة أبواب : أولها البحث عن الملل والسلالات ، ثانيها عن البلدان التى وقعت فيها هذه الحوادث التاريخية ، وثالثها عن المصادر التى تخبرنا عن هذه الوقائع . ويلي هذا التمهيد الصريح بيان واضح حسن النظام .

الباب الاول (ص 218 ـ 221) يعدد العناصر الخمسة التى لعبت دورا فى تاريخ الاسلام ، وهم العرب، والايرانيون ، والاتراك والتراكمة ، والمغول والتتر ، والبربر ويبين موجزا السلالات التى اخرجتها كل أمة ، ويشير فى ملحق للباب الاول مرة اخرى الى اماكن هؤلاء السلالات وكيف انتشرت من الاندلس الى الشرق الاوسط . وفى الباب الثانى يذكر المؤلف استنادا الى آثار أبى الفداء ، الممالك الاسلامية ومدنها المهمة ويبحث ايضا بواسطة مقدمة العالم العربى نفسه عن البحور والانهار والجبال وينجز الباب مشيرا الى ما يجب ان يلم به من المعلومات على مدرسى الجغرافيا التاريخية . ويحتوى الباب الثالث ـ وموضوعه المنابع التاريخية ـ على فهارس الكتب النقدية مبتدئا بتاليف دربلو d'Herbelot المسمى ب Bibliothèque Orientale

(المكتبة الشرقية ، وهي قاموس شامل على كل ما كان معروفا في أوائل القرن الثامن عشر عن المواضيع الشرقية)، ويقدر رايسكه هذا التأليف غاية التقدير ، ويذكر فيما بعد المطبوعات المعدودة التي يمكن ذكرها بهذا الخصوص وهي: E. Pocock :

وتآليف جرجيس المكين (المتوفى 1273) ، وأبي العباس احمد الفرغاني المنجم المشهور في أوربا منذ القرون الوسطى ، والاقسام المطبوعة من تاريخ أبي الفداء (وليس في رايه ابن عربشاه بمؤرخ حقيقي) ، وما يسمى الجغرافي النوبي Geographus nubiensis ثم يشير بالايجاز الى كتب الرحلة وما ألف في أوربا من الكتب حول التاريخ الاسلامي (مثلا قانتمر ، Pétis de la Croix وغيرهما) وبعد ذلك يبحث عن المصادر المخطوطة ، أي عن تآليف أبي الفداء بأجمعها ، عن ابن الشحنة ، حمزة الاصفهاني ، كتاب المعارف لابن قتيبة ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، كتاب الامثال للميداني الذي قدره غاية التقدير . ثم يضيف بعض ملاحظاته في فهرست المخطوطات الشرقية في لايدن الذي اعتنى باحضاره هايمان Heymann ، ويتم مقالته مشيرا الى مجموعات المخطوطات الموجودة في اوكسفورد، باريس وفلورانسا التي كانت أقل اهمية من مجموعة مكتبة لايدن . بعد ان عالج رايسكه موضوعه في هذه الابواب الثلاثة ختم كتابه ـ على عادة عصره ـ بمديح يستحق المطالعة حتى في أيامنا هذه ، يمدح فيه التاريخ الاسلامي ويوصي مواطنيه بمتعدد الاسباب على درس هذا التاريخ الذي كان يهمل كثيرا في أوربا . ومع ان هذه التصريحات كانت مخاطبة لطبقة القراء غير الاختصاصيين في هذا الحيز والذين لا علاقة خاصة لهم بتفرعات هذا العلم فقد أراد المؤلف استرعاء اهتمامهم لهذا الموضوع الجديد ، وبالرغم عن ذلك فان هذا المديح دليل صريح لادراك تصورات رايسكه ونظرياته العامة وان نقصه أحيانا ارتباط منطقي ، تدل هذه السطور على أن العالم رأى تاريخ الشرق كقسم لتاريخ العالم العام ، وانه ظن أن درس هذا التاريخ كان واجبا على الانسان لاجل التواتر التاريخي ، كما اعتبر أيضا درس تاريخ اليونان والرومانيين القديمين واجبا على كل رجل مثقف وقد اجمع العلماء في العالم على ذلك اجماعا كاملا ولا ينكر أحد اهمية التاريخ القديم . لقد تحقق لرايسكه من وصف ايران في اثناء القرون الوسطى بقلم أبي الفداء انه كانت هناك عين الامم والاقاليم ، وعين العادات وأنواع الحكومة التي تحققت له من مطالعته تاريخ هرودوت اليوناني ووصفه لايران القديمة . لذلك يطلب العالم من المؤرخ ان يعقب ما حدث في مدى العصور لتلك الممالك والولايات في الشرق وفي افريقيا التي فتحها اليونان أو كانت من توابع الامبراطورية الرومانية ، ويراعي أيضا العلاقات المتبادلة والحوادث المشتركة بين الغرب والعالم الاسلامي التي كانت موجودة منذ أيام شارلمان الامبراطور الالماني في أيام هارون الرشيد ومنذ تأسيس دولة الروم ، من عهد النورمان في صيقيليا والصليبيين الى فتوحات الاتراك العثمانية ، ويشير الى الفائدة التي سيحصلها مؤرخ الغرب من درس الشرقيات وكثيرا ما أكد لقرائه بأن التاريخ الشرقي لا يقصر عن تاريخ الغرب معنى أو قيمة أو محتويات ، وصرح بأن التخصص بالتاريخ كثيرا ما يرى الكفر والظلم ظافرين بلا عقاب يعيشان في سعادة فانية بينما يرى أيضا التقوى وبساطة الخلق مهملين على سطح الارض أو مداسين في التراب ، فيبدو للناظر المتحير كأن كل شيء دائر في دور عظيم مهول تحركه قوة عمياء مجهولة ، ومع ذلك لا يشك بأن الثمر الاحلى والمحصول الاهم الذي انتجه درس التاريخ هو ادراك القوى التي تسير الافعال البشرية كما كشف عنها تاريخ بني آدم . ومن أراد ان يتعلم من درس التاريخ مناهج السياسة ، ومن رغب في تبصر الحكمة الالهية أو طرق القضاء الاعمى ، أو من ود ان يتفحص الاخلاق والشيم البشرية فانه يجد لذلك في تاريخ الشرق امثلة بارزة عين البروز كما يجدها في تاريخ أوربا . ولا يتردد رايسكه بأن يعطف على أعمال طغرل السلجوقي ، جنكزخان ، تيمور ومحمد الفاتح اهمية وقيمة اكبر من قيمة فتوحات اسكندر الاكبر ، ويبلغ اعجابه بملوك ايران القديمة حدا انه شبه انتصار اليونان على الايرانيين بتصلف برغش يزعج الافيال ، ونظر الى تاريخ الاسلام بعين طويلة النظر ، وان اعتبر ظهور محمد والفتوحات الدينية من الحوادث التاريخية التي لا يفهم معناها العقل الانساني بل يرى فيها حكم القدرة الالهية ، ويرى في قبض بني أمية عنان الدولة وفي الآلام التي قاساها آل علي بن أبي طالب قضاء الهيا . وتمسك ، « تشيع حسن » كما وجد هذا التشيع في مصادره التاريخية غير القديمة العهد : أي انه اعتبر عليا الخليفة الحقيقي للرسول وقد منعه احيال الشورى ودسائسه من حقه الموروث لمدة 24 سنة ، ويرى فيه احسن ملك ظهر في العالم الاسلامي ، ملكا شجاعا ، عادلا محاه القضاء والقدر ، وأباده بغض عائشة الطموح . ويرى رايسكه في مجادلة علي ومعاوية مثالا امثل لظفر الحيلة على القوة ، لفوز الرداءة على الامانة ،

حتى انه لا يكتفى بذلك المديح بل يقارن بين علي بن أبي طالب ومارك أورل ، الامبراطور الرومانى الذى يسمى « الفيلسوف على السرير » . وتدعوه أحيانا هذه الرغبة فى التشبيه الى أن يكشف كثيرا من المشابهات بين التطور التاريخى فى ممالك الاسلام وفى أوربا لكي يثبت لقرائه انه قد وقع على مسرح الشرق من المشاهد السامية المهذبة مثلما جرى فى الغرب .

وفى ابان هذه السنوات كتب رايسكه كتابا آخر عنوانه :
de Principibus Muhammedanis literarum laude claris

فأنعم عليه ملك ساكسونيا في مدينة دريسدن بلقب « الاستاذ » وخصص له معاشا سنويا مقداره 100 تالر ، بيد ان الحكومة لم توف هذا المعاش الا بين الحين والآخر حتى انقطع تماما بعد سنة 1755 . وسرعان ما تدهورت وضعيته الاقتصادية ويقرض للفاقة والحرمان كما كانت حالته من قبل ، ولم يرق أحدا اذ اتهمه اللاهوتيون بالزندقة لانه لم يتراجع عن اصراره أن لا يسمي محمدا « نبيا كاذبا » و « خداعا » وان لا يصف دينه خرافة مضحكة ولانه لم يقسم تاريخ العالم الى قسمين ، أحدهما التاريخ المقدس ، والآخر التاريخ الدنيوى ، بل كان يحصل لتاريخ الاسلام منصبا فى وسط التاريخ العام .

ذد على ذلك أن رايسكه لم يتردد باظهار رأيه بكل صراحة غير مبال بالنتيجة ، واحدث ذلك خصومات شديدة ، فمثلا قام الاستاذ شولتنس الفلمنكى فى سنة 1748 بنشر طبعة جديدة لكتاب النحو الذى ألفه اربنيوس (سنة 1613) وما كان ذلك الا تكرار طبع المؤلف الاصلى كما كان اعتنى به جوليوس ، خليفة اربنيوس ، دون ان يغير فيه شولتنس كلمة واحدة بل أبقى على ما فيه من أساطير لقمان ومن الامثال الا انه اضاف الى هذه المادة الموروثة اشعارا منتخبة من الحماسة ولم يخل هذا المقتطف من الغلطات ، ثم ألف شولتنس مقدمة طويلة لهذا الكتاب رد فيها نظريات بعض شارحى التوراة من اليهود ومن يقول قولهم من النصارى في مسالة قدسية اللغة العبرانية . واعترض رايسكه على المقدمة قائلا بانه لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة فى كتاب يبحث عن النحو العربى ، ولا جدال فى أن مطالعة اشعار الحماسة ليست بمناسبة للمبتدئين بدرس العربية .

وفى العام نفسه نشر شولتنس ترجمة لكتاب امثال سليمان مع شرح له مستعملا فيه منهاج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج . وقام رايسكه بمراجعة هذين الكتابين في Nova Acta Eruditorum وهي مجلة علمية من نشر السيد منكن . وألزمه ضميره فى هذا النقد الادبى أن يصرح عن الحقيقة بشأن الكتابين . ومع أنه حافظ على الاحترام اللائق تجاه شولتنس فانه أدرك من الوقع الذى سببه فقط أنه كان من الافضل لو كان قد قام أحد غيره بهذه المهمة . ولكن شولتنس الذى كان معتادا على المشاجرات الادبية والذي لم يجترىء أحد حتى ذلك الوقت على الشك في كونه معلم عصره في العربية قام بالدفاع عن نفسه ببعث تحريرين الى « منكن » طالبا منه ان ينشرهما ويوزعهما الى جميع الجهات . وفيها خرج بالنزاع الى المضمار الشخصى وافترى على رايسكه غاية الافتراء بحيث لم يبق ذلك دون نتيجة . وكان لهذين المكتوبين تأثير كبير فى المانيا ـ وكان شولتنس قد ارسلهما الى جميع اساتذة الكلية بلايبرج ـ فلم يستطيعوا تقدير ما عرضه رايسكه من الاسباب الواقعية ولم يتمكن أحدهم من المقارنة بين الرأيين مقارنة علمية كما لو كانوا اختصاصيين فى الموضوع . ولم يمد أحد يد المساعدة لرايسكه ومضت عليه سنة بعد سنة دون ان يعينه معهد ما فى المانيا أو فى خارجها أستاذا ولم يفده اثباته فى نشرياته انه كان متبحرا فى اللغة اليونانية أيضا لان خصيمه فى هذا المضمار كان الاستاذ ارنستى Ernesti ، استاذ اللغات القديمة واللاهوت معا ، . ـ فى سنة 1753 حاول الاستاذ بوبوويتش Popowitsch فى جامعة فيينا ان يجد منصبا لرايسكه لدى السفير النمساوى فون شواختايم الذى سافر الى استانبول سفيرا عند الباب العالى ، وفشل هذا الترتيب لان رايسكه أبى ان يتكثلك . واستمرت أحواله المالية تملى عليه الضيق والحرمان ، وخاصة عندما توقف الملك الساكسونى عن أداء معاشه فى عام 1755 .

ولما يئس رايسكه من حاله توجه فى أواخر سنة 1756 الى الاستاذ ي.د. ميخائليس Michaelis (1717 الى 1791) فى مدينة جوتنكن الذى كان زميله فى المدرسة . ولم يشعر العالم الساذج الذى لم يكن له دراية لا بالناس وأخلاقهم ولا بالدنيا ودنياها أنه وضع حياته في يدي أناني مدبر للمكائد . روى له رايسكه ما جرى له من تصرفات الدهر ومن الضيق وأفهمه انه لو عينه أستاذا فى معهد جوتنكن لاجبرت الحكومة الساكسونية على معونته حتى ولو كان هذا التعيين المفروض ظاهرا وغير حقيقى ، وأضاف الى هذه الكلمات ـ وكان مخلصا غاية الاخلاص

مستقيما ـ ان ضيقه وفقره قد منعاه من أن يخدم ركاب الادب العربى اكثر مما خدمه حتى الآن ، ولو تحسنت أحواله فانه سيأخذ في طبع كتب عربية ويعتني خاصة بطبع قاموس صغير للعربية ، وان لم يساعده الله بالقريب العاجل فيصبح لا فائدة منه للادب العربى . ورغم انه كان لميخائليس تأثير واسع ونفوذ كبير بين أهل العلم فى ألمانيا فانه لم يرغب في التوسط لأجل عالم فاقه بكثير في اتقان اللغة العربية ... وكان وقوفه هو على العربية ناقصا لا يعتد به ، وظن مثلا ان الاعراب كان من مخترعات النحويين العرب ولعلهم ادخلوه متبعين المثال الاوربى ، وكان يعترف نفسه بأنه يجهل تطبيق العروض ومع ذلك تجرأ ان يترجم ويشرح المقتطف من الحماسة الذى نشره شولتنس ، وكان عظيم الافتخار بطريق تعليمه للغة العربية ومنهاج تدريسه . ولما كان عليه من الاعتداد بالنفس وحب الظهور والاستبداد لم يرد أن يشتغل أحد سواه في هذا المضمار . ولذلك تظاهر بالغيظ لما جاءه طلب رايسكه ، حتى انه حول مكتوبه الذى لا يشك فى ماهيته الخاصة الشخصية الى وزير المعارف فيمملكته مشيرا اليه بالرد، ثم قدم لرايسكه الرد الوزارى ضمن خطاب رسمى صارم .

وأطاح ذلك المكتوب بآمال رايسكه كلها ، فأدرك انه لن يعين أستاذا في معهد ما بعد ذلك ، فاخذ في السعي الى وظيفة فى مدرسة ، فاصبح عميد مدرسة نيكولاي في لايبزج بيد أن صديقا مرائيا أراد منع هذا التعيين بدسائسه وكاد أن يوفق بذلك ، ولكن رايسكه كان قد وجه اهتمام الوزير كونت واكربارت الساكسونى الى شخصه عندما عرف السكك العربية فى مخزن متحف مدينة دريسدن سنة 1756 ، وكفت شفاعة هذا الوزير لتبديد كل ما اظهر أهل الكنيسة من الشكوك عندما اختير رايسكه عميدا للمدرسة .

وبهذا وجد رايسكه بعد سنوات الضيق والفاقه الطويلة ملجأ أمينا ، فاستمر في العمل في ميدان الادبين العربى واليونانى فى أوقات فراغه من المدرسة . ولكنه لم يجد ناشرا لهذه المؤلفات فكان عليه أن يقوم بمصارف الطبع بنفسه . وكان قد نشر فى عام 1754 المجلد الاول من ترجمته اللاتينية لتاريخ أبى الفداء ولكنه لم يتمكن من بيع أكثر من 30 نسخة منها ، ولذلك أجبر على الكف عن الطبع . ومن ذلك الحين اقتصر على النشريات الصغيرة ، وفى عام 1755 اعتنى بنشر رسالة ذات أهمية كبرى لما تحتوى عليه من تلميحات واشارات تاريخية أرسلها ابن زيدون الى ابن عبدوس . وهناك رسالة صغيرة ألفها ردا على تهنئة صديق له قدمها له بمناسبة تعيينه فى وظيفته الجديدة ، وكان صديقه قد ذكر فى شعر لاتينى عصا يعقوب وانصولجان المذكور فى الادب اليونانى ، فشكره رايسكه برسالة صغيرة بحث فيها عن سبعة امثال عربية تعالج العصاة وقد أخذها عن كتاب الامثال للميدانى الذى كان مغرما به جدا . أما فى السنة التالية فقد عالج فى برنامج المدرسة اكثم بن صيفى أحد « حكماء » الجاهلية استنادا الى كتاب الميداني المذكور ولم يفهم أحد من الناس مقصد هذا المقال واقتصروا عن ادراك أهميته العلمية حتى ان رايسكه كف عن تدوين برنامج آخر فى المستقبل .

وكان المتن العربى الاخير الذى قدمه للعالم منتخبات من ديوان المتنبى كمثال للشعر العربى ، ونشر نحو اثنى عشر بيتا عشقيا ومرثيتين في سنة 1765 ، وأهدى هذه الباقة الشعرية الغرامية لزوجته التي زفت بعد انتظار طويل فى سنة 1864 ، وحبا لها اجتنب فى شرح هذه الغزليات الايضاحات العلمية واكتفى بالتعريف بكلمات الشاعر وايضاح عالم شعوره للقارىء الغربى الذى كثيرا ما وقف مكتوف اليدين تجاه بعض التعابير الشرقية ، وحاول تقدير قيمة اشعار المتنبى من وجهة نظر علم الجمال

وتحقق مرامه الذي عبر عنه في اهداء هذا الكتاب وهو : ليت شعرى أن يبقى اسم زوجى مقرونا باسمى ، معروفا عند الناس ! لان ما دام اسم رايسكه يذكر سيذكر أيضا اسم رفيقته التي رافقته بوفاء تام وشجاعة مثيلة . لما توفى رايسكه فى 14 آب 1774 على اثر مرضه بالسل ـ ولم يكن قد اتم العام الثامن والخمسين من عمره ـ اهتمت هي بتركته القيمة حتى لا تقع فى يدى خصمه ارنستى ، واستودعتها لسنيك Lessing المؤلف الالمانى الشهير الذى كان من القليلين الذين قدروا قيمة رايسكه اثناء حياته ، وحفظ لسينك هذه التركة الى أن اشتراها حاجب الملك الدانماركى السيد فون سوم، ووصلت المكتبة فى كوبنهاجن بعد وفاة هذا الرجل الشريف .

نشرت زوجة رايسكه تاريخ حياة زوجها الراحل كما دونه نفسه قبل وفاته ، وهذا كتاب يمزق القلوب . ولم تخف من مجادلة اولئك الذين ظهرت سفالتهم وحقارتهم فى هذا التأليف ونشرت أيضا سنة 1779 « نظريات فى كتاب أيوب » و « امثال سليمان » التى دونها رايسكه سنة 1749، مضيفة اليها متن خطابه الافتتاحي الذي ألقاه في 31 آب 1748 فى كلية لايبزج ، وسادها شعور بالرضى عندما رأت ان العالم المتوفى حصل على التقدير الذي انكروه عليه في حياته . ونشر جرونر Gruner فى 1776 للمرة الثانية

رايسكه ، وأما ي.ج. ايشهورن Eichhorn ، وهو أيضا من المستشرقين ، فنشر سنة 1781 المكاتيب التي بعث بها رايسكه عام 1757 بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة في متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رايسكه من شأن علم اللغة العربية وأدبها وجعله علما مستقلا . ولم ينتبه أحد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية والالهية مثلما أدرك ذلك رايسكه ، ولم يتوجه أحد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة philologia sacra الذي كان مسيطرا على عقول العلماء في ذلك العصر ، وكان مقصد هذا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسداؤها له فوائد جمة في تفسير العهد القديم ، وكان يكتفي بالبحث عن أصول كلمات عربية في القاموس العربي لجولديوس ويقابلها بكلمات عبرانية مختارا له من المعاني المختلفة لكل كلمة المعنى الذي يوافق اغراضه . ورغم ان احدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعو بـ Polyhistorismus أي ان العالم تخيل انه بامكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التاريخي بأجمعه فقد عرف رايسكه أن للطبيعة الانسانية وللعقل الانساني حدا ونهاية ، لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الروماني سيسرو « لاجل لا نهائية الاعمال لنقص في الوسائط وليل عظيم لليونانيين وقد كرس وقته للعربية فقط فرفض اضاعة وقته وقوته في تحصيل اللغات المتجانسة . وكان غرض رايسكه اثبات الوحدة الباطنية الروحية لعلومه اللغوية والتاريخية والادبية ، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية . مما لا شك فيه انه كفقيه في اللغة رأى أصل العلم وأساسه في درس عميق للغة نفسها وكان معلوما عنده ان لا يهدى الى وقوف حقيقي على اللغة العربية الا طول الاناة والصبر في مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع وتحقق له بان مؤلفات العرب المسلمين افضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصارى بكثير . ولم يكن يخفى على فراسته ان طبعات التوراة والانجيل العربية ترجمها اما نصارى شرقيون ممن لم يكن لهم علم باليونانية أو العبرانية أو العربية ، أو انها كانت تراجم عجمية على أيدى اليسوعيين الذين لم يعرفوا الا الفلجاتا (أي الترجمة اللاتينية للتوراة والانجيل من القرن الخامس م) . ولذلك اجتهد رايسكه في فتح طريق الى خزائن آداب العرب المسلمين وتوفق في ذلك وأصبح هاديا للآخرين . ولكن درس اللغة لديه ليس غرضا بنفسه بل رأى فيه أساسا للكشف عن التاريخ . ونظرته هذه أدت به الى ادراك أهمية الدور الذي لعبه الاسلام في تاريخ الشرق . فانه لم ينظر الى المتون العربية نظرة اللغوي الصرف الذي لا يكترث الا لفهم معاني الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر اليها نظرة المؤرخ الذي جعل لتاريخ الاسلام مقامه من تاريخ العالم العام وكان يشرح هذه المتنوعات مثلما يشرح المشاهد في دار التمثيل عند تأمله في الوقائع الجارية على المسرح اذ يقوم بالفحص عن بواعث الاشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر . ورغم ان رايسكه لم يتوفق بتأليف « تاريخ الاسلام » كما أراده فان هذا العالم البعيد النظر وضع أساسا للعلوم الاسلامية العصرية التي تبنى كعلم تاريخي على أساس علم اللغة العربية . أما معاصروه فلم يستطيعوا فهم افكاره الجسورة ولا تأملاته الجليلة فصار «شهيد الادب العربي» كما سمى نفسه وأصبح تاريخ حياته تاريخ الآلام والظلم كما تشهد به مذكراته المؤثرة . وكما ان للجرأة التي سار بها دون اكتراث على الطريق الذي اعتبره مرة صحيحا أثرا ساميا فانه من المخجل انه لم يكتشف أحد من أولى الامر في جامعات أوربا أهمية هذا الرجل العبقري العظمى ، هذا الرجل الفذ الذي كان من أعظم علماء الآداب العربية ، ومن المخجل كذلك ان هذه الآداب التي أراد تشييد بيت لها لم تحصل في المانيا القبول الذي استحقته . ولكنه من الطريف أن نذكر انه أسس في القرن التالي في لايبزج أي في عين المدينة التي قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بأن يعتبر رايسكه من أجداده الروحانيين .